التربية الحديثة

للدكتور عبد السلام الكردانى بك

مراقب تعليم ثانوى

تطورت أساليب التربيـــة مع الزمن تبعا لتطور المثل العليا التى تسود كل عصر من العصور، فأتى على الانسان حين من الدهر كان يرى فيه أن القوة الجثمانية هى غاية يجب أن تتجه اليها التربية . وعلى هذه الأسس أقيم صرح التربية فى ذلك العصر واتجهت العناية إلى تقوية الجسم وتمرينه على مختلف أنواع الرياضة وضروب الفروسية .

ثم جاء عصر آخر اتجه فيه الفلاسفة نحو العنـاية بالقدرة الكلامية فى الحوار والمناقشة وقرع الحجة بالحجة وغير ذلك من أساليب المنطق، فسيطرت هذه الفكرة على القائمين بتربيـة النشء، فجعلوا كل همهم إعداد الفرد لإتقان الكلام ووزن الحجج حتى يتفوق على منـاقشه ويفوز بكسب قضيته .

ثم أتى على الإنسان حين آخر أكبر فيه العلم والمعرفة واستولى عليه الاعتقاد بأن أسمى الغايات هى أن يحصل المرء من العلم أكبر قسط ويحصل من المعرفة على أكبر مقـدار . وعندئذ أخذت السلطات التعليمية تتنافس فى تزويد الناشئين بالمعلومات عليهم يحيطوا بعلم الأقدمين والمحدثين، وقد أدى ذلك الى الحرص على جمع العلوم والمعارف وترتيبها وتقسيمها وتوزيعها على أوقات الدراسة بالمدارس . وصار المختصون فى كل مادة يزعمون لها أعظم المزايا وأعمق الآثار فى تربيـــة النشء ويطالبون السلطات بأن تزيد فى الساعات التى يجب أن يخصصها المتعلم لمـادتهم . ونشأ من ذلك تزايد ساعات العمل الدراسى وتضاعف المناهج وتفنن المدرسون فى الأساليب التى بها يشوقون تلاميـذهم لمـادتهم ويسترعون انتباههم لدروسهم . والتلميذ المسكين يزداد الحمل عليه يوما بعد يوم .

ثم وضعت السلطات التعليمية نظما عتيقة بغيضة أطلقوا عليها اسم الامتحانات . وأحاطوها بجـو رهيب مصطنع لا يقيس فى التلميذ سوى ذلك القـدر الذى استظهره من تلك المواد التى تعلمها . وكلمـا اشتدت تلك الامتحانات اشـتد تبعا لذلك اصطباغ التعليم بالصبغة الميكانيكية التى جوهرها تنافس المعلمين فى شحن أذهان تلاميـذهم بالمعلومات التى لا يمكن لهم هضمها والإلمـام بأسسها و بإحاطة بحقيقة مدلولاتها .

انتشر التعليم الذى من هذا النوع وكثر عدد خريجيه من المدارس والجامعات وامتلأ بهم السوق وإذا بأولى الأمر يلمحون فى كثير من هؤلاء الخريجين عجزا عن المقاومة فى الحياة وتقصيرا عن النجاح فيما هم بسبيله من أعمال . وعندئذ أخذ كثير من المربين وأولى الرأى فى الهيئة الاجتماعية يتساءلون : هل هذا النوع من التعليم الذى نقدمه لأبنائنا وبناتنا هو خير الأنواع ؟ وهل هو عدة مناسبة لهم فى الحياة ؟ وفيما كان رجال التربية يراجعون أنفسهم فى أغراضها وأساليبها كان علم النفس يتقدم بخطوات واسعة وتتطور بحوثه وتصطبغ بالصبغة العملية التجريبية بعد أن كانت تغلب عليها النزعة النظرية فدرست الطفولة فى مختلف مراحلها وانتهى علماء النفس فى القرن العشرين إلى مبادئ عامة وضعت تحت نظر المربين والباحثين فى أغراض التربية وخير الوسائل لتحقيقها ، ومن أهم هذه المبادئ ما يأتى :

أولا — أن لكل مرحلة من مراحل نمو الإنسان جسميا وعقليا خصائص ومميزات . فالدور الأول من الطفولة مثلا أهم مميزاته اللعب وما يتجلى فيه من نشاط وما يبدو فيه من خيال واسع .

ثانيا — أن لكل فرد مميزات واتجاهات خاصة تتكون منها فيما بعد شخصيته وأن نشاط الطفل الحر يكشف عن استعداداته الخاصة ومواهبه الكامنة .

ثالثا — أنه يجب للاعتبارين السابقين أن تكون دراسة الطفل والاهتمام بألعابه وميوله والحياة الخاصة التى يحياها مع رفاقه هى الأساس الذى تبنى عليه أساليب التربية . فالطفل إذن يجب أن يكون هو المركز الذى يدور حوله تفكير المربين .

وظهر من علماء التربية وقادة الرأى فيها فريق يدعو إلى تطور أساليب التربية تبعا للاعتبارات السابقة . وبجهود هؤلاء المربين كأفراد وجهودهم مجتمعين فى حلقات صغيرة ومؤتمرات كبيرة تطورت أساليب التربية والتعليم فى ربع القرن الأخير تطورا عظيما . وظهرت طرق جديدة طبقت فى مدارس خاصة وأهم مميزات هذا النوع الجديد من التربية الحديثة هو :

أولا — كان الطفل فى نظر المربين فيما مضى ليس إلا كائنا بسيطا وديعا مستقبلا . وكانوا يشبهون عقله بلوح تنطبع عليه نتائج التعليم انطباعا ثابتا ويصورونه كقطعة من الطين يشكلها المعلم كيفما شاء ، فالتلميذ ليس عليه إلا أن يجلس منصتا لمعلمه الذى يصب فى ذهنه أكبر قدر من المعلومات ويشكل خلقه فى أجمل قالب يراه . وهذه الحقائق فيها كثير من الصحة ولكنها تهمل العنصر الأساسى الذى اهتدى إليه علم النفس الحديث وهو أن الطفل كائن حى وأن كل كائن حى ينمو بنشاطه الذاتى ويتفاعل مع الوسط والبيئة التى يعيش فيها والحياة الزاخرة بالنشاط الذى يحياها .

ثانيا — لكى يستغل نشاط التلميذ الذاتى أو فاعليته يجب أن يجد الطفل من نفسه باعثا داخليا يستثير فيه هذا النشاط ويدفعه نحو التحصيل . وخير وسيلة لذلك هى إثارة المشاكل أمامه أو عرض المشاهد والموضوعات بصورة يجد فيها التلميذ مسائل تتطلب الحل وصعوبات يستشعر رغبة فى التغلب عليها، وتحفزه على تشغيل عقله باحثا منقبا يلتمس الوسائل لتحقيق غرضه هذا ، وهو الوصول إلى ح ل لما يقوم أمامه من مشاكل .

"فالمشكلة" من أهم مميزات التربية الحديثة، إذ أنها الحافز على النشاط العقلى استجابة لميول حية فى نفس الطفل . ذلك النشاط الذى يمده بالمعلومات التى يجد لذة كبرى فى الحصول عليها و لتى تنطبع فى نفسه انطباعا ابتدائيا يحى والتى تتفاعل مع معلوماته السابقة وذلك على عكس الحقائق التى يتلقاها التلميذ من مدرسه وهو شرح له المدرس بالطريقة التقليدية والتى مهما أحسن المعلم عرضها واجتذاب التلميذ لحسن الاستماع إليها و إقباله على حفظها فانها تملأ ذاكرته دون أن يكون لها أثر ثابت أو تفاعل محسوس مع ماسبقها من معلومات . ولكل واحد من كبار المربين طريقته الخاصة فى تحقيق ذلك الغرض . فدكرولى له طريقته ومونتسورى لها طريقتها وهيلين بارك هيرست لها طريقتها المعروفة بطريقة دولتن وكلباترك له طريقته المعروفة بطريقة المشروعات الخ . وليس هذا مجال تفصيل هذه الطرق المختلفة وشرح مميزاتها بدقة .

ثالثا — أن المدرسة الحديثة قد اتخذت صورة مجتمع حى يعيش فيه الأطفال على النسق الذى سيعيشونه فى المستقبل كأفراد فى مجتمع إنسانى يتعاونون على تحقيق أغراض وضعوها نصب أعينهم ، فهم يجتمعون فيما بينهم و ينتخبون ممثليهم لإدارة شئونهم ومحاسبة المقصرين أو المذنبين منهم و يرسمون الخطط لتنفيذ مايرتاءى لهم القيام به من أعمال كدراسة إقليم أو تمثيل رواية أو مكاتبة و باء إلى غير ذلك فيقسمون أعمالهم فيما بينهم لكل نصيب محسوس يؤديه بحماسة وأمانة مدركا أن لحسن قيامه به أثرا فعالا فى نجاح المشروع بأسره .

وهذه كلها الأسس التى تقوم عليها الحياة الديمقراطية الصحيحة و يقوم عليها التعاون الفعال بين المواطنين على اختلاف استعداداتهم وطبقاتهم ووظائفهم فى الحياة تبذر بذورها كلها فى الطفل وهو فى المدرسة فنحن هناك نعده للحياة بواسطة الحياة نفسها .

رابعا — كان من أثر الاهتمام بالنشاط الذاتى للطفل ان تغيرت معالم المدرسة تغيرا أساسيا . فبعد أن كانت مجرد فصول تشغل كل منها فرقة من الفرق و يتناوب عليها المعلمون بالتوالى أصبح يخصص فى كثير من المدارس غرفة لكل مادة يطلق عليها اسم المعمل وتحتوى على الأجهزة والكتب والمراجع والأدوات اللازمة لدراسة هذه المادة دراسة عملية يقوم بها التلميذ بشخصه تحت إشراف المعلم إشرافا بسيطا و توجيها توجيها غير محسوس . والتلميذ

يعتمد على نفسه فى رسم خطته وتنظيم أوقات دراسته واستخراج المعلومات من الكتب ورسم الخرائط وجمع الاحصاءات وإجراء التجارب الخ. وفى كل مدرسة ورش للأشغال اليدوية يصرف الطالب فيها وقتا طويلا لتدريب يده وتعويدها الدقة والمهارة وتمرينها على صنع الأدوات والأجهزة والنماذج وكل ماتحتاج إليه مشروعاته . وأعطيت للتلميذ حرية واسعة فى التصرف فى كثير من ساعات الدراسة يشغلها بالدرس أو العمل اليدوى بالكيفية التى يراها.

وتطورت دراسة العلوم تطورا محسوسا بحيث أصبحت تؤدى إلى غرس الروح العلمية الحقيقية فى التلاميذ تلك الروح التى تحملهم على تفهم الظواهر وإدراك مسبباتها والمناقشة فى كل رأى فلا يسلمون بصحته إلا عن عقيدة واطمئنان بعد إجراء التجارب اللازمة للتأكد من اتفاق ذلك الرأى والقوانين الطبيعية المعروفة وانسجامه معها .

وأما بقية المواد فقد عنى فى دراستها بالكيف لا بالكم . فمقدار المعلومات التى يحصلها التلميذ لا أهمية له . وإنما المهم هو العناية بترقية أسلوبه فى التفكير وبتعويده طرائق البحث. فيكفى فى التاريخ مثلا أن يدرس التلميذ بنفسه أى عصر من العصور (بمناسبة حافزة كتمثيل رواية) يدرسه دراسة مستنيرة عميقة بعناية واهتمام وتحمس تحت إرشاد المعلم فاذا احتاج فى المستقبل إلى دراسة عصر آخر استطاع أن يدرسه بنفسه معتمدا على خبرته السابقة .

والتربية البدنية وما تحتاج إليه من أفنية وملاعب وتنظيمات تنال أكبر قسط من العناية لأنها مجال فسيح لترويض النفس وتهذيب الخلق وتمرين الطالب على حسن المعاملة والتعاون بمعناه الكامل الصحيح . هذا إلى فوائدها المعروفة كسلامة الجسم وصفاء الذهن وهدوء الطبع . وهنا فى المدارس الحديثة يقوم التلاميذ بأنفسهم بجميع الترتيبات الخاصة بها بغير تدخل ما .

خامسا — تبدو على تلاميذ المدرسة الحديثة إشارات تنم عن السرور والمرح والسعادة وإشارات أخرى تنم عن الرجولة وقوة الشخصية والاعتزاز بالنفس . كما أن تصرفاتهم تكشف عن بعد فى الأفق وسعة فى الحيلة وسرعة فى البديهة ومرونة تعينهم على إحسان التصرف فى كل موقف ، والتخلص من كل مأزق ، هذا إلى أنهم يكونون أغزر مادة فى كل العلوم لأن ما حصلوه منها قد ثبت فى عقلهم واستقر فى ذهنهم للحافز الذى حملهم على تحصيله واللذة التى وجدوها فى الحصول عليه .

ولعل خير ما نختتم به هذه الفقرة ذكر الغرض الذى وضعته نصب عينها الهيئة الدولية المعروفة برابطة التربية الحديثة التى أتشرف برياسة فرعها المصرى . وهذا الغرض هو نشر الاصلاح التعليمى وترقيته بحيث يستطيع كل طفل فى العالم أن يتلقى التربية الكفيلة باظهار شخصيته على أكمل وجه ، وتنميتها نموا متزنا ، وإعداده لإدراك التبعات التى يلقيها على عاتقه المجتمع واضطلاعه بها على خير وجه .

هذا كله عن المدرسة . ولكن البيت أيضا عامل من أهم العوامل فى التربية . والتربية الحديثة لا تقيم العلاقة فيه على مجرد السلطة والاحترام وإنما على الحب والثقة والتعاون والصراحة. فالوالد يتخذ من ولده صديقا والبنت تتطلع إلى أمها كمعاونة وملهمة . فبعد أن كان الولد يجلس منزويا فى ركن من الأركان مكتفا لا يتكلم إلا إذا أذن له أصبح للولد حرية تبيح له أن يجلس كيفما شاء فى حدود الأدب المعقول وأن يشترك فى المناقشة ما دام حريصا على آدابها متبعا قوانين المجتمع وأصبح الوالد يصارح ابنه والأم تفاتح بنتها فى مواضيع على جانب عظيم من الأهمية كالمسائل الجنسية التى يحتاج الفتى والفتاة فيها إلى إرشاد دقيق من أكثر الناس عطفا . هذا من جهة ومن جهة أخرى أدرك الوالد أن من أسس التربية الحديثة أن العقاب الرادع للطفل ليس إيلامه بالعصا وإنما الحيلولة بينه وبين إشباع رغباته والحد من نشاطه . فالولد يجد عقوبة رادعة فى عدم تمكينه من شراء قطعة خشب لازمة لمشروعه أو منعه من استعمال آلات النجارة لتهيئة نموذج يرغب فى إعداده أو حبسه عن رؤية فيلم جديد متصل بعمله الدراسى وهكذا .

بل إن الحكومة نفسها أخذت تنظر إلى العقوبات بل والمحاكمات نظرة عاطفية تأديبية جديدة فى ضوء المباحث النفسية الحديثة . فالسجون تحورت إلى صورة تصلح من نفس المسجون وتؤدى إلى خروجه من السجن وقد اختفت فيه نزعات الشر وحلت محلها نزعات الخير .

وتتجلى هذه الظاهرة بنوع خاص فى معالجة الأحداث من المجرمين فإن كلا منهم يكون محل دراسة خاصة بواسطة اخصائى اجتماعى منم بقواعد علم النفس تقدم نتيجتها إلى القاضى الذى سينظر فى القضية. والاصلاحيات التى يرسل المذنب من الأحداث إليها هى الأخرى قد أصبحت أمكنة دراسة نفسية . وأصبح برنامج العمل فيها لا يوضع إلا بعد استشارة الاخصائيين فى علم النفس الحديث .

وليس هذا التقدم بالشىء الكثير الذى نرجوه فعلم النفس إلى الآن لم يحظ بالمكانة التى تجب له ولم يشغل المجتمع بعد كما ينبغى، وإنا لنرجو فى المستقبل القريب تقدما عظيما يؤدى إلى الانتفاع بعلم النفس فى كل ناحية من نواحى المجتمع، وإنا لنرجو أيضا أن تساهم مصر فى هذه الحركة بأكبر قسط وأن يكثر فيها عدد المشتغلين بعلم النفس فى البلاد، إذ أن عددهم فى الوقت الحاضر لا يتجاوز عدد أصابع اليد وأن تقام دعائم الاصلاح الثابتة على أساس بحوثهم الخاصة حتى يتهيأ كما نرجو رابطة التربية الحديثة لكل طفل مصرى أن يتلقى فى جميع نواحى المجتمع التربية الكفيلة باظهار شخصيته على أكمل وجه والمؤدية الى إضطلاعه بأعبائه على أحسن صورة .

عبد السلام الكردانى